اللوحة

نعم.. أجبتُ على تساؤل أحد المسئولين في ذاك المعرض الفني الجماعي بوسط القاهرة.. نعم إنها لي.

دفعه إعجابه بالوقوف متأملا لوحتي.

كانت تتوسط الجدار المواجه للباب الكبير فزاد فرحي.. تكوينات اللون فيها، حتما ستشد أعين الزوار، كما أن شخوصها النابضة بالحياة تدعو للتفاؤل.. بذاك النور المنبعث برتقاليا شفافا.. والذي ركَّبته من أكثر من لون.

لم يعلمني أحد كيف أرسم، أو أكوِّن مزيج الألوان، وحتى تحصيلي العلمي لم يتعد الثانية الإعدادي..

أرسمُ.. هكذا دون مقدمات، أو قرار مسبق وأحصل على أولى المراتب.. عقلي يفنِّد ويتذكر، بينما أجلسُ على تلك المصطبة الأسمنتية الباردة الجامدة، وحولي في حجرة الحجز عدد من مرتكبي الجرائم وذوي السوابق ومتعاطي الممنوعات، تحاصرنا رائحة عفنة تنطق بها الجدران، وتفرض نفسها علينا بوصفها فردا منا.

لولا رغبتي الملحة، والتي باتت واجبة، أن أبتعد عن الهامش؛ ماذا كان علي أن أفعل إذن؟ أردت أن أصبح رقما، في معادلة الحياة الفنية، لكني أصبحت رقما داخل حجرة الحجز في هذا القسم الأقدم من أقسام الشرطة.

أنا عن نفسي فشلتُ في الإجابة.. فهل يخبرني أحدكم، قبل أن أجنُّ، وأن يفوت موعد إعلان نتيجة المسابقة:

من أين كنت سأحصل على ثمن الألوان..ياإلهي..؟ من عائد الجائزة التي أتوقعها، كنت سأرد له نقوده.. هكذا وبكل بساطة. ماذنبي في أن أسرتي فقيرة ؟.. وما زاد الطين بله وألما، أن تجنن أبي يوما وطلَّق أمي، فتوقفت حياتنا كلنا، كما توقفتُ عن الذهاب للمدرسة، ليس أنا فقط بل وإخوتى أيضا. مكثنا طويلا نتنقل من بيت قريب لبيت غريب، إلى أن تقدم أحدهم لأمي فتزوجت منه.. ووافقت على شرط الرجل بأن تصطحب معها أخي الأصغر فقط، وذلك بدافع شفقة مكذوبة، غلَّفها بإستجابة لتوسلات أمي، لكن الصغير أراحهما، ولم يأخذ وقتا طويلا بينهما ومات بفشل كلوي لم يعالجه أحد..

هكذا ببساطة، فالفقير يموت في بلادي هكذا وببساطة، وكان الرجل يدير تجارة بسيطة في بيع الأدوات المنزلية، ولايمتلك محلا، اللهم إلا الغرفة التي تأوي ثلاثتهم، وتكرم عليَّ يوما بأن جعلني أسرح له ببعض الأدوات المنزلية، مقابل مصروف يومي بسيط، أروح الف الشوارع والمقاهي، وأحيانا أخبط على أبواب البيوت، وأعود ببقية البضاعة وبضع جنيهات، وبعض الآلام في قدمي وظهري وأصبر نفسي بأن الفرج سيزورني يوما ويتغير الحال.

أسلِّمه ثمن ما ابتاعه الناس، وتقدم لي أمي سرًّا وهي مرتعبة بعض الطعام على أن أسرع الخروج من البيت قبل أن يجيئ هو.

كنتُ لا أحسُّ بالنقمة على العموم إذا قارنت بين حجرتهم، وبين العشة التي استطعت أن أبنيها بما توفر لي من قروش بفضل وظيفتي التي أطلق عليها زوج أمي اسما متحضرا: مندوب مبيعات. أحملُ الترامس والخلاطات الكهربية المضروبة والمكاوي..مربوط بعضهم ببعض، والباقي أحمله في كيس بلاستيكي كبير على الكتف الأخرى.

أحيانا كنتُ أرجع بكامل الأشياء، ولكن هذه المرة قررتُ أن أبيع كل البضاعة التي تخلع كتفي.

جلست على إحدى المقاهي، وناديت على البضاعة بأعلى صوت بعد أن قللت السعر للنصف. وبالفعل انتهيت من عبء الكتفين سريعا، وهرولت أشتري احتياجاتي من ألوانٍ وخشب وفرشياتي بأحجام مختلفة، واختليتُ بنفسي متناسيا زوج أمي ونقوده وإرهاقي. ومكثتُ أنجز لوحتي.. اعتكفت تقريبا.. وإذا قرصني الجوع، أعدل الطوبات الحمر؛ اثنتان في كل ناحية وعليها كنكة الشاي وألتهم كوب الشاي برغيفين كاملين.. وأعود لأكمل.

حتى انتهيت من اللوحة، وقدمتها للمعرض الجماعي. واليوم ستقوم اللجنة بالتحكيم لمجموعة اللوحات في المعرض، ذاك بينما أنا هنا محتجز بقسم الشرطة، و مدان بسبب بلاغ زوج أمي واتهامه لي بالسرقة. لم أسرق ياسادة.. فقط أخذت بضع الجنيهات، على سبيل السلف، وحين أحصل على نقود سواء من جائزة أو بيع اللوحة، سأرجع له نقوده والله شاهد على صدق كلامي.. لم يصبر علي هذا

الرجل لم يشفع لي أن من ولدتني تخدمه، وتغسل ملابسه الداخلية، وترعى مصالحه. يالك من جشع أيها الرجل.

أسأل نفسي؛ ماذا لو وقفت أمام القاضي قويا بعد ترحيلي إلى مبنى النيابة، وحكيت له القصة من بدايتها في المحكمة؟ هل سيصبر علي الرجل ومستشاريه ويعطيني فرصتي؟ هل يوافق أن يطلق سراحي بعد كتابة تعهد مني يفيد بإلزامي دفع ديني بعد عدة أيام.. فقط عدة أيام ياسيادة القاضي.

غفلت عينا الصبي، وراحت رأسه تتوسد ركبتيه.. فرأى في نومه قاعة المحكمة كبيرة، مزرقشة جدرانها بجداريات مبهجة ولوحاته القديمة، المكتملة منها وغير الجاهزة، ترتص في القاعة.

ورأى نفسه يرتدي بدلة عرسٍ، وكل أصدقاء طفولته حوله، مع كل من صادفهم وجادلوه فى أسعار الأشياء التى كان يبيعها.. كلهم كانوا ضمن الحشد، حتى أمه وشقيقه الذي مات.. الجميع يغني أغنيات الزفاف.. وصواني الطعام الفخم الذي تصادف ورآها فقط في الإعلانات أو حين كان يسير بجوار أحد المطاعم الكبرى. قاعة أفراح

إذن.. وعلى منصة القضاة يدور المطرب المشهور بالمايك، يغني وأمامه الراقصة.. اقترب من العروس التي كانت تجلس بجواره أمسك بطرف الطرحة التي تخفي بها وجهها المطـأطئ إلى أسفل خجلا ليرى وجه شقيقه الأصغر الذي لم يسعفه أحدا من آلامه ويفيق مفزوعا.